# مقدمة الكتاب

تبحث الفيزياء في طبيعة المادة التي يتكون منها كوننا هذا: ما مكوناتها النهائية؟ وما العلاقة بين الأشياء المادية ما كان منها متناهياً في الصغر أو كان متناهياً في العظم؟ تبحث في القوانين التي تحكم تصرفات هذه المادة، تصرفاتها كما هي الآن وتصرفاتها عبر تاريخها.

يؤدي هذا البحث إلى اكتشاف حقائق طبيعية تدل عليها المشاهدة المباشرة، أو يؤدي إليها الدليل العقلي مما هو مشاهد. لكن لا الفيزياء ولا غيرها من العلوم الطبيعية الأخرى هي ـ كما يظن كثير من الناس ـ منظومة من تلك الحقائق القطعية، وإنما هي أيضاً نظريات يؤتى بها لتفسير تلك الحقائق، وهي أيضاً وقائع تفترض صحتها من غير برهان قطعي. لكن الحقائق القطعية هي الحكم النهائي على ما هو حق وما هو باطل في مجال العلوم الطبيعية. فالنظريات والقوانين مهما كانت فائدتها التفسيرية تعد باطلة وتلقى جانباً إذا قام دليل من حقائق الطبيعة على بطلانها.

لكن عالم الطبيعة لا يفعل هذا كله في فراغ أو في تجرد كامل من كل تصورات سابقة، بل إنه ليمارس عمله في نطاق تصور عام للوجود. هذا التصور العام الذي يسمَّى أحياناً بالفلسفة هو الذي يحدد العلماء على ضوئه ما يعدُّونه حقيقة وما لا يعدُّونه، ونوع التفسير الذي يعدُّونه تفسيراً علمياً، وما النظريات التي تساعد على مثل هذا التفسير.

والتصور العام الشائع الآن بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية هو مع الأسف تصور مادي إلحادي؛ يفترض أنه لا واقع إلا الواقع المادي، وأن الحقائق إنما هي الحقائق المادية (وإن كان المعنى الذي يعطونه للمادة في تغير مستمر بحسب

الكشوف العلمية)، وأن الكون مكتف بنفسه غني عن أي شيء خارجي، وأن التفسير العلمي ـ لهذا ـ يجب أن يكون تفسيراً في حدود هذا الكون المشهود.

لكن شيوع تصور ما في عصر من العصور لا يعني أنه هو الحق، إن التصور الصحيح للكون هو تصور يعدُّ الكون مخلوقاً لله، وبهذا ينفي عنه صفة الاستغناء، ويزيل التقابل ـ الناتج عن التصور الإلحادي ـ بين التفسير العلمي والتفسير الديني، وهذا هو تصورنا نحن المسلمين. ولذلك فنحن نقبل من العلم الطبيعي جانبه الذي يقرر الحقائق بالمشاهدة أو بالأدلة العقلية القطعية، ونقبل نظرياته التي يلغب على الظن صحتها، بل ونقبل تفسيراته للظواهر الكونية بظواهر أخرى، لكننا لا نعد هذا تفسيراً نهائياً لها، ولا نغلق الباب أمام تفسيرات لظواهر مادية بأسباب غير مادية كما هو الحال في الاستسقاء ونزول المطر، أو الرقى والشفاء، أو العبادة والراحة النفسية، وهذا هو المقصود بالدعوة إلى (إسلامية) العلوم، لكن هذا موضوع آخر أرجو أن نعالجه في بحث آخر.

ولما كانت الفيزياء تبحث في طبيعة الكون بالمعنى الذي ذكرته، وكان الدين قائماً على أن الكون مخلوق لله؛ فقد كانت الفيزياء دائماً ذات صلة بقضية وجود الخالق وصفاته. لست أعني بالطبع أن هنالك جانباً من الفيزياء يبحث في هذا الموضوع، وإنما أعني أن حقائق الفيزياء ونظرياتها تفسر أحياناً تفسيراً يجعلها متنافية مع وجود الخالق، وتفسر أحياناً تفسيراً يجعلها مقتضية له. لكن مناقشة هذه القضية تتعدى مجال الحقائق والنظريات الفيزيائية، ويتأثر المناقش لها ـ حتى عندما يكون عالماً فيزيائياً مرموقاً ـ بما في مجتمعه وتاريخ قومه من أفكار ومسلَّمات شائعة. ولذلك يحرص كثير من الفيزيائيين الذي يناقشون هذا الأمر على أنهم لا يتكلمون بوصفهم فيزيائيين خُلَّص؛ لأن ما يقولونه هو مزيج من حقائق الفيزياء ونظرياتها، وما لهم من تأملات فيها واستنتاجات منها.

لذلك فأنا لا أناقش في هذا البحث الحقائق أو النظريات الفيزيائية، وإنما

أناقش الطريقة التي استخدم بها هؤلاء الفيزيائيون هذه الحقائق والنظريات في إثباتهم لما أثبتوه أو إنكارهم لما أنكروه مما له تعلق بقضية وجود الخالق. المناقشة مناقشة عقلية تبدأ بالتسليم للفيزيائيين بما يقررون من حقائق، وما يرجحون من نظريات؛ لترىٰ مدىٰ عقلانية الحجج التي استخدموها في استنتاج ما استنتجوه أو ترجيح ما رجحوه مما هو ذو صلة بموضوعنا هذا.

لقد كان بإمكان الملحد ـ قبل مقدم الفيزياء الحديثة ـ أن يتعلل في إنكاره لوجود خالق للكون بحجتين كانتا تبدوان آنذاك علميتين، لقد كان بإمكانه أن يزعم أولاً: أن المادة في ذاتها أزلية، وأن العارض الحادث إنما هو الأشكال التي تأخذها تكويناتها المختلفة. وأن يزعم ثانياً: أنه إذا كانت تلك المادة الأزلية هي الذرات مثلاً، فقد وجدت الوقت الكافي لتتجمع ـ بمحض المصادفة ـ لتأخذ تلك الأشكال العارضة التي يتكون منها عالمنا هذا بما فيه من حياة وعقل.

لقد كان المعتقد أن في تينك الحجتين إبطالاً لدليلين يعتمد عليهما القائلون بوجود الخالق، أعني (دليل التكوين، ودليل العناية). لم يكن هذا الموقف الإلحادي أمراً تقتضيه فيزياء نيوتن، لكنه كان أمراً لا تمنع القول به فيما يبدو. لكن الفيزياء الحديثة أبطلت تينك الحجتين باكتشافها أن الذرة نفسها تنقسم، وأنه لا شيء يمنع من تحويل المادة إلىٰ طاقة أو تحويل الطاقة إلىٰ مادة، ثم بتبنيها لنظرية (الانفجار العظيم) التي يلزم عنها حدوث هذا الكون المشهود كله بما فيه من زمان ومكان.

سأحاول أن أبين في هذا البحث أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يُسوِّغه حتىٰ في فيزياء نيوتن، ثم أفصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق، رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم.

لماذا هذا البحث؟ ولماذا هذه المناقشات مع أن الملحدين في العالم ـ كما سنذكر بعد ـ قلة قليلة من الناس؟

لأن هؤلاء الملحدين وإن كانوا قلة إلا أنهم قلة مؤثرة، والعبرة في الأفكار ليست بكثرة عدد من يعتنقها ويدافع عنها ولكن بعدد من يتأثر بهم، ولو تأثراً جزئياً.

ولأن كثيراً من المؤمنين ـ ولا سيما في البلاد الغربية ـ يشعرون بأنهم في موقف ضعيف من الناحية الفكرية، وهذا يجعلهم يستخذون أمام هجمات الملحدين ولا يجرؤون على مناقشتهم والدفاع عن معتقدهم إلا القلة القليلة من بعض مفكريهم.

ولأن هذه الموقف الضعيف من جانب المؤمنين بوجود الخالق جعل إيمانهم هذا أمراً ذاتياً معزولاً عن الحياة، الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية والحياة العلمية، فغلب الفكر المادي الإلحادي على هذه الجوانب كلها، وعن طريقها بدأ يبث المواقف الإلحادية خلسة بين المؤمنين في البلاد غير الغربية بما في ذلك البلاد الإسلامية.

ولأنهم يوهمون الناس بأن إلحادهم لازم عن العلم الطبيعي أو أن هذا العلم مناصر له، والناس مفتونون بالعلوم الطبيعية لما رأوا من صدق كثير من دعاواها، ولما رأوا من فوائدها في جميع مرافق حياتهم. فإذا قيل لهم إن الإلحاد لازم عن هذه العلوم الجليلة القدر عندهم كان هذا فتنة لبعضهم، إما بتشكيكهم في إيمانهم، وإما بتكذيبهم لحقائق هذه العلوم، والتصديق بأنها خصم لدينهم.

ولأن كثيراً من أبناء المسلمين يتعرضون للفكر الإلحادي هذا بطريق مباشر أو غير مباشر، في بلادهم أو في بلاد الغرب التي يذهبون إليها دارسين أو مقيمين، وكثيراً ما يحزن ذوي الدين منهم أن يجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على تحديات الملحدين.

وقد وجدت بالتجربة من مقالات قليلة كتبتها باللغتين العربية والإنجليزية أنهم يستفيدون من أمثال هذه المناقشات.

إن الاستعلاء الفكري سمة من سمات الإسلام لله، فمهما رأىٰ المسلم كفراً يتبجح ويتحدىٰ كان عليه أن يتصدىٰ له وينازله، فصاحب الحق يجادل أحياناً ليقمع لا ليقنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد عدَّ الله ـ تعالىٰ ـ أمثال هذه الحجج من أجلِّ النعم التي ينصر الله بها أئمة الدين، ويرفع بها درجاتهم، فقال ـ سبحانه ـ عن حجة أخرىٰ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].